

اللفظ والمعنى في التراث النقدي

تعدُّ قضية (اللفظ والمعنى) واحدة من القضايا المهمة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إذ شغل النقاد والبلاغيون العرب بها منذ عهد مبكر يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، وتساءلوا عن مكان الإعجاز والجمال: هل هو في اللفظ؟ أم في المعنى؟ أم في كليهما معاً؟ وانقسموا إزاء هذه القضية إلى ثلاثة فرق، فريق يؤثر اللفظ على حساب المعنى، وفريق ينتصر للمعنى على حساب اللفظ، وفريق ثالث يتوسطهما.

***موقف الجاحظ (ت 255هـ):** وقف عند هذه القضية وقفة خاصة تلفت أنظارنا وتدعونا إلى التأمل فيها ابتغاء الاهتداء إلى المعنى الحقيقي الذي رمى إليه الجاحظ بمقولته الشهيرة «والمعاني مطروحة في الطريق... وإنَّما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج... فإنَّما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»⁽¹⁾. أي أنَّ الشعر يصنع بالكلمات وليس بالمعاني.

وجلِّي أنَّ الجاحظ هنا ينتصر للفظ، ويجعل له الشأن في الشعر، علماً بأنَّه رجل معتزلي والمعتزلة - كما هو معروف عنهم - يهتمون بالمعاني العقلية المنطقية التي تعينهم على أداء مقالاتهم والبرهنة على حججهم، ومن ثمَّ إقناع خصومهم. فاللفظ حسب الجاحظ أقرب مصطلح يدلُّ به على جوهر الشعر، لأنَّ الاقتصار على ما يحمله النص من المعاني ما ينبغي التعويل عليه وحده في تقويم النص الأدبي، بيد أنَّ المعاني مطروحة في الطريق، وإنَّما الشأن في كيفية صياغتها شعراً.

***موقف أبي هلال العسكري (ت 335هـ):** رجح أبو هلال العسكري بأن مدار الشعر الجيد والبلاغة الحسنة في تحسين اللفظ فيقول: «ليس الشأن في إيراد المعاني لأنَّ المعاني يعرفها

¹ - الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت، ص

العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب»⁽¹⁾. فالخطب الرائعة والأشعار الرائقة ما عُمِلت لإفهام المعاني فقط، فالكلام إذا كان لفظه «حلوًا عذبًا، وسلسًا سهلاً، ومعناه وسطًا دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائد النادر، وإذا كان المعنى صوابًا واللفظ باردًا وفاترًا، كان مستهجنًا ملفوظًا ومذمومًا مردودًا»⁽²⁾.

***موقف ابن خلدون (ت 808هـ):** نظر ابن خلدون إلى مسألة اللفظ والمعنى من باب حديثه عن الملكة اللغوية، فطريقة امتلاك ناصية اللغة العربية مثلاً، أي (تعلمها) حسب ابن خلدون، يكون بتعلم ألفاظها مما جرى من كلام العرب، فاكْتَسَاب الملكة اللغوية، يكون بالتوجه إلى الألفاظ دون المعاني التي هي تُبْع لما يُتَعَلَّم من الألفاظ. يقول ابن خلدون: «صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ، لا في المعاني... والذي في اللسان والنطق إنما هو في الألفاظ، وأما المعاني فهي في الضمائر»⁽³⁾.

***موقف ابن قتيبة (ت 276هـ):** عدّ من النقاد الذين رفضوا الفصل بين اللفظ والمعنى ، فقسّم الشعر على أربعة أضرب: ضرب حسن لفظه وجاد معناه، وضرب حسن لفظه وقصر معناه، وضرب جاد معناه وقصر لفظه، وضرب قصر فيه اللفظ والمعنى...⁽⁴⁾. وكانت قسمته إبداعاً بأن حسن الصياغة واختراع المعنى إذا اجتمعا كان ذلك هو الغاية. وهذه قسمة عقلية منطقية استوفى فيها ابن قتيبة جميع الممكنات. ويبدو أنّ بيئة الفقهاء قد أثّرت في ابن قتيبة، فجعلته يريد من المعنى أن يكون حكمة أو قولاً صالحاً، ينتفع به الناس، ويتضح ذلك من خلال الأمثلة التي اختارها للضرب الذي جاد معناه وحسن لفظه، ومنها:

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا تردّ إلى قليل تقنع
ومن الأمثلة التي اختارها للضرب الذي جاد معناه وقصرت ألفاظه، مثل قول لبيد بن ربيعة:

¹ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قحيم، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1989، ص 63

² - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ج1، ط1، دار الآثار، القاهرة، 2010، ص65.

³ - ابن خلدون، المقدمة، ط6، دار القلم، بيروت، 1986، ص577.

⁴ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق كمال مصطفى، ط 3، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2003، ص17

ما عاتب المرء الكريم كنفه
والمرء يصلحه الجليس الصالح
ومن الأمثلة التي ساقها ابن قتيبة للضرب الذي حسن لفظه وعلا ولا فائدة مرجوة في
معناه، قول أحدهم:

فلما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدّت على حذب المطايا رحالنا
ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح
إنّها «أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع»⁽¹⁾ غير أنّه ليس تحتها معنى مفيد. ويبدو
أنّ خير الشعر لدى ابن قتيبة، هو المعنى النافع المفيد الذي يؤدي بصياغة قوية متماسكة. ومن
الأمثلة التي ساقها ابن قتيبة للضرب الذي تأخر معناه وتأخر لفظه قول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني *** شاو مشلّ شلول شلّش شول

● **موقف ابن طباطبا العلوي (ت322هـ):** لم يفصل ابن طباطبا بين الألفاظ والمعاني، بل
أكد على الصلة بين اللفظ ومعناه قائلا: «.. وإفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه
ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة... بل يكون كالسبيكة
المفرغة والوشي المنمنم، والعقد المنظم، والرياض الزاهرة، وتكون قوافيه قوالب لمعانيه
»⁽²⁾.

هذا نصّ واضح الدلالة على الصلة بين اللفظ والمعنى، ومقتضاه أنّ المعنى يوجد ثمّ
تجيء الألفاظ لتدلّ عليه. وربما قصرت هذه الألفاظ في الدلالة، غير أنّ المعنى باقٍ كما هو،
فمن الأولى أن تجيء الألفاظ مشاكلة (مشابهة و مماثلة) للمعاني.

موقف قدامة بن جعفر (ت337هـ):

وقف قدامة بن جعفر عند قضية (اللفظ والمعنى) وفصل بينهما منذ أن عرّف الشعر
بأنّه: «قول موزون مقفى يدلّ على معنى»⁽³⁾، ومنذ أن قال - أيضا-: «المعاني للشعر بمنزلة

¹ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص19.

² - ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ط3، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، د ت، ص43.

³ - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ط1، مكتبة الجوانب، قسطنطينية، 1302هـ، ص55.

المادة الموضوعية، والشعر فيها كالصورة»⁽¹⁾.

وهنا يتبين الأثر الأرسطي في قدامة، ذلك بأن أرسطو كان يرى أنّ الموجودات تتألف من عنصرين: هيولى (مادة الشيء التي يصنع منه) كالخشب للكرسي، فالصورة تمنح هذه المادة شكلها، لأن المعاني معروضة للناس، وإثما الفضل لم يمنح هذه المعاني الصورة التي تصير بها شعرا. فقدامة بن جعفر يرى بأن الإبداع الشعري يجب أن يتميز بإتلاف (توافق) عناصره النصية «وهو أن يكون اللفظ مساويا للمعنى، حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه»⁽²⁾.

* موقف ابن رشيق القيرواني (ت 456هـ): عدّ اللفظ والمعنى شيئا واحدا، متلازمان ملازمة الروح للجسد، فلا يمكن الفصل بينهما بحال، فقال: «اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه كارتباط الجسم بالروح، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ، كان نقصا للشعر وهجنة عليه... وإن اختل المعنى كله وفسد، بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه»⁽³⁾.

* عبد القاهر الجرجاني وموقفه من قضية اللفظ والمعنى (ت 471هـ):

ظل الفصل بين اللفظ والمعنى قائما لدى النقاد والبلاغيين العرب، حتى جاء عبد القاهر الجرجاني وعاب الذين يقدمون الشعر لمعناه أو للفظه، أي أنّه أنكر تلك الثنائية، ودعا - في الوقت نفسه - النقاد والبلاغيين إلى العناية بالصورة مجتمعة من الطرفين معا، من دون فصل بينهما، بعد أن أحسّ بأن إنكاره لتلك الثنائية (اللفظ والمعنى) يخدم فكرة الإعجاز التي كانت تشغل باله. ورأى بأن الذي ينبغي أن يُعول عليه في تقييم العمل الأدبي هو نظم الكلام، لا المعنى وحده، ولا اللفظ وحده. وأنه لا معنى للفصل بينهما. فالنظم عند عبد القاهر الجرجاني «أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله... ولا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعلق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها ببعض، وتُجعل هذه بسبب من تلك»⁽⁴⁾.

¹ - المصدر السابق، ج1، ص66.

² - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص55.

³ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط1، ج1، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ص112.

⁴ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق، محمود شاكر، ط3، مطبعة المدني، وجدة، المغرب، 1993، ص81.

فالنظم أشبه ما يكون بالنسج والتأليف والصياغة والبناء، مما يوجب اعتبار أجزاء الكلام بعضه ببعض « حتى يكون لوضع كلِّ حيث وضع علة تقتضي كونه هناك »⁽¹⁾. وكذلك في شأن المعاني، إذا ضُمّت إلى غيرها، فإنما تنال مزيتها من حسن ملائمتها للمعنى الذي أُريدت له، وتألّفها هي وجاراتها على الإبانة عنه.

يُفهم أن نظرية النظم هي **بناء وتركيب**، فالكلمة المفردة ليست لها مزية أو فضيلة في ذاتها، وإنما تكتسب قيمتها من **ضمها إلى غيرها**، على الوجه الذي يقتضيه النظام النحوي. فالعبرة في النظم تكون من خلال إدراك العلاقات السياقية بين العبارة لفهم معاني النحو كالقديم والتأخير والفصل والوصل والإظهار والإضمار والاستفهام والنفي.....ومن الأمثلة التي يضرّ بها عبد القاهر الجرجاني قول امرئ القيس:

قف نبك من ذكرى حبيب ومنزل *** بسقط اللوى بين الدخول فحومل

يقول عبد القاهر: " لو قلنا **من نبك قفا حبيب**، لا يستقيم المعنى ولا يستبين، فهذا دليل أن الألفاظ المفردة لا تكمن قيمتها إلا وهي مرتبة ترتيباً يقتضيه علم النحو "

كما أشار عبد القاهر الجرجاني إلى جمالية اللغة الشعرية التي تنتج ما سماه **بمعنى المعنى** الذي يتميز عن المعنى البسيط الذي نصل إليه بظاهر اللفظ بلا واسطة، كقولنا فلان كريم، أما معنى المعنى، فلا نصل إليه إلا بفهم معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة (الكناية، الاستعارة، التمثيل) كقولنا فلان كثير الرماد أو ندّي الكف.

وهكذا صاغ عبد القاهر الجرجاني نظريته في النظم على أساس الربط بين اللفظ والمعنى، وبين دلالة الألفاظ الأسلوبية ودلالاتها الثانوية، **ليجعل النظم وحده أساساً لتقويم النصوص**.

¹ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 55.

